أدب المقامات في التراث العربي

د. محمد زهير البابا

□ أدب المقامات :

لقد فضّل العرب منذ جاهليتهم الشعر على النثر ، فحفظوه بعقولهم ، وتداولوه على ألسنتهم في مجتمعاتهم وأنديتهم ، فتناقله رواتهم ، واستشهد به عظماؤهم وصعاليكهم ، وافتخر العرب بشعرائهم لأنهم كانوا السيوف المسلطة على أعدائهم ، يزودون عن حياضهم بهجومهم ، وينشرو فضائل قومهم بفخرهم ، ويعبرون عن عواطفهم بغزلهم .

الا أن القصائد الشعرية مهما طالت لا يمكنها أن تكون واسطة سهلة لذكر القصص والنوادر والفكاهات أو ذكر المحاورات والمجادلات ، وان كانت مجالا رحباً لذكر الأمثال والحكم والوصف المعبر الموجز والمحكم . والنثر مهما اهتم الحكماء والكتاب بتجويده وتنميقه ، الا أنه صعب الحفظ ، وتسجيله في السطور وخاصة عند أمة كان أكثر أبنائها يجهلون القراءة والكتابة .

لقد اشتهر في الجاهلية وصدر الاسلام بعض الخطباء المجيدين أمثال سحبان وائل ، وقس بن ساعدة الأيادي والنابغة الذبياني ، كما اشتهر بعض الحكماء والكهان ورواة القصص والأساطير ، أمثال لقمان الحكيم ، وسطيح الغساني ، وخنافرين توأم الحميري ، وقد حفظت بعض خطبهم وأقوالهم وحكمهم المأثورة ، لأنها كانت على شكل جمل موزونة ومسجعة ، بحيث كانت أشبه بالشعر منها بالنثر .

وحينما اشتدت حاجة الخلفاء والأمراء الى وزراء وكتاب يدبجون الرسائل المرسلة الى الملوك ، والأوامر الموجهة الى قادة الجيوش ، وأصبح عامة الشعب يتشوق لسماع القصص والأساطير ، والنوادر والأخبار العجيبة ، والتي تروى فيها الأمثال والحكم ، وتوصف فيها الشهامة والهمم ، وأيام العرب والعجم ، فقد أصبح النثر مفضلا على الشعر ·

لقد جمع الثعالبي المهمات التي يتولجها الكتاب ، والتي يلجأون فيها الى النثر فقال :

« الكتّاب ، وهم ألسنة الملوك ، إنما يتراسلون في جباية خراج أو سد ثغر ، أو عمارة بلاد ، أو اصلاح فساد ، أو تحريض على جهاد ، أو احتجاج على فئة ، أو دعاء الى الفة ، أو نهي عن فرقة ، أو تهنئة بعطية ، أو تعزية برزيّة ، أو ما شاكلها من جلائل الخطوب · ومعظم الشؤون التي يحتاجون فيها الى أن يكونوا ذوي آداب كثيرة ومعارف مفننة » ·

مما لا شك فيه أن القرآن الكريم يعتبر أحسن صورة للنثر ظهر في أواخر العصر الجاهلي · وقد جاء بلسان عربي مبين ليرشد الرسول ﷺ به قومه الى الصراط المستقيم ، فيأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، وينظم لهم حياتهم العائلية وصلاتهم الاجتماعية وواجباتهم الدينية ·

اعتبر القرآن منذ نزوله معجزة البلاغة العربية ، ففيه كلام فريد من نوعه اعتبره بعض المفكرين وسطاً بين الشعر والنثر الفني،فهو خال من السجع المتكلف ولكنه يضم كثيراً من الجمل المسجوعة والموزونة ، والسجع موجود في الحديث دون اطراد ، كما لا يطرد في القرآن ، فهو كما يقول زكي مبارك « حلية تُقصد ولكنها لا تُلتزم » ·

والسجع يعتبر من مميزات البلاغة الفطرية ، في جميع لغات العالم المتطور · لذلك نجده منتشراً على ألسنة الخاصة والعامة في الحكم والأمثال بصورة خاصة · واذا كان السجع حلية يزان بها النثر ،ويساعد على الحفظ ، فهو مقبول ما دام يجري في حدود الاعتدال ، دون تكلف وتطويل ، مع عدم انتقاء الكلمات الصعبة الفهم ، وتكرار الجمل المتماثلة المعنى لأنها متماثلة الوزن ·

لقد كان من المعقول أن يبتعد الفقهاء والنحويون ورجال العلم والدين عن اعتماد الشعر وسيلة للتعبير عن أفكارهم وتجاربهم ونظرياتهم ، وأن يلجأوا الى النثر العادي ٠ذلك لأن التزام الأوزان الشعرية والقافية يجعل من الصعب التعبير بصورة واضحة عن تلك الأمور بأسلوب سهل الفهم ٠

ولكن من الملاحظ أن بعض من اشتغل بالعلم رغب في صياغة أفكاره على شكل قصائد شعرية ، منظومة غالباً على بحر الرجز ، لذلك عرفت بالأراجيز ٠ ومن أشهرها أرجوزة خالد بن يزيد في الكيمياء ، وألفية ابن سينا في الطب ، وألفية ابن مالك في النحو ٠٠٠ وقد بقيت هذه الطريقة متبعة في كثير من العلوم ، لأنها كانت تساعد طلاب العلم على الحفظ ، ولكن فهم ما جاء فيها يحتاج دائماً الى الشرح ٠

وفي أواخر القرن الرابع للهجرة ظهر شكل جديد من النثر أطلق عليه اسم فن المقامات ٠ ويقال بأن الذي ابتدعها هو بديع الزمان الهمذاني (٣٥٧ ـ ٣٨٣هـ) ، وأنه أخذها عن استاذه ابن فارس ٠ وكان الهدف فيها تعليمياً ، فراقت القوم من بعده ، وجرى كثير على منواله ٠

تمتاز المقامات ، عن بقية أشكال النثر الفني ، والمسجع غالباً ، بكونها خصصت بالأصل لرواية القصص والنوادر ، التي يتسامر بها أفراد الشعب في أوقات السرور والراحة ، وتدور مواضيع المقامات غالباً حول أشخاص أذكياء ، يسلكون طريق الكدية (الشحادة) ، أو يلجأون الى الحيلة والكذب والخداع لكسب القوت أو للايقاع بخصومهم ٠

ومن المقامات ما خصص للكلام عن حُسن الصفات ومكارم الأخلاق ، وتفاوت الطباع والعادات ، وكشف أسرار المجتمعات ، بالاضافة الى بيان بلاغة اللغة العربية وشرح معاني ألفاظها الغريبة ٠

ان اتقان كتابة المقامة يحتاج لموهبة لغوية ، وذاكرة غنية بالحكم والأمثال والأشعار ، بالاضافة الى أذن موسيقية لتزاوج بين الجمل المتتالية ، وتأتي بسجع مقبول بعيد عن التكلف ، وسنذكر فيما يلي لمحة موجزة عن أشهر المقامات المعروفة باللغة العربية :

أ ـ مقامات بديع الزمان الهمذاني :

ألفها أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد الهمذاني ، المعروف ببديع الزمان بدأ بكتابتها في شهر رجب عام ٥١٢ هـ ، وجعلها في واحد وخمسين مقامة ، ويقال أنه أنشأ من المقامات زهاء أربعمائة مقامة ، ولكن لم يصلنا منها سوى ما ذكر ٠

طبعت هذه المقامات لأول مرة في الآستانة دون تحقيق، ويقول العلامة الشيخ محمد عبده ، الذي قام بتحقيقها اعتماداً على عدة نسخ ، لم يذكر مصدرها ولا صفاتها ، ان الانتفاع بها كان عسيراً لسببين : الأول ما عاث به النسخ في ألفاظها من تحريف يفسد المبنى ويغير المعنى ٠ وزيادة تضر بالأصول وتذهب بالذهن عن المعقول ٠ والوجه الثاني : غرابة بعض كلماتها وخفاء كثير من اشاراتها، لذلك اضطر رحمه الله الى التعليق عليها، وشرح بعض ألفاظها مع اجراء التنقيح عند الضرورة ، وقد قامت المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين في بيروت بطبع مقامات أبي الفضل بعد تحقيقها من قبل الشيخ محمد عبده في بيروت سنة ١٩٢٤

ان المتكلم في مقامات الهمذاني رجل يدعى عيسى بن هشام ، أما المحتال فهو أبو الفتح الاسكندري ٠ وتجري الحوادث في هذه المقامات بين أذربيجان وأصفهان والأهواز وبخارى وسجستان والرصافة وشيراز ونيسابور وتنتهي كل مقامة غالباً بقصيدة قصيرة من شعر المؤلف فيها حكمة أو عبرة أو خلاصة ٠

وتتجلى براعة الهمذاني في حفظ أشعار العرب وحسن الاستشهاد بها ، بالاضافة الى الثروة الكبيرة التي يملكها من الألفاظ العربية ٠ وقد أجاد وصف الفرس في المقامة الحمدانية ، ووصف أصحاب الحيل واللصوص والمجرمين في المقامة الرصافية ، وتجلى نقده الجيد لأشعار جرير وأبي نواس في المقامة الابليسية ، وكذلك فعل حينما تكلم عن الجاحظ في المقامة الجاحظية ٠ وتعتبر المقامة المارستانية من أبدع ما كتب ، حيث قام مجنون مقيم بالبيمارستان بمناقشة أبي داوود المتكلم وأفحمه بالمنطق ٠ أما أصعب المقامات فهماً وأكثرها تعقيداً فهي المقامة الشعرية لأنها تتطلب معرفة تامة لجميع ما قاله العرب من الشعر في الجاهلية والاسلام ٠

ب ـ مقامات الزمخشري :

مؤلفها أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي الزمخشري • كان أحد أئمة العلم والدين والتفسير واللغة والآداب • ولد في قرية زمخشر من بلاد خوارزم • سافر الى مكة فجاور بها زمناً لذلك حمل لقب جار الله • تنقل في البلدان ثم عاد الى الجرجانية ، من قرى خوارزم حيث توفي عام ٥٣٨ هـ • كان معتزلي المذهب ، مجاهراً شديد الانكار على المتصوفة ، فأكثر التشنيع عليهم •

يخاطب أبو القاسم في مقاماته نفسه فيعظها ، ويطلب منها الزهد في مطالب الدنيا ، ويطلب التوبة عما ارتكبه من ذنوب وآثام • لم يستعمل الزمخشري الشعر في استشهاداته الا قليلا • أما أسلوبه في التعبير عن أفكاره فهو أسهل مما كتب الهمذاني • فهو لم يلجأ الى ذكر الألفاظ العربية الغريبة والكتابات العويصة •

عدد مقاماته خمسون ، واذا استثنينا المقامات التي يحض فيها نفسه على الفقه والزهد ومكارم الأخلاق فاننا نجد خمس مقامات طرق فيها مواضيع تتعلق باللغة العربية ، من نحو وعروض ، كما خصص مقامة للكلام عن المصطلحات المتداولة في دواوين الدولة • وتكلم في المقامة الأخيرة عن أيام العرب المشهورة •

جـ ـ مقامات الحريري :

مؤلفها أبو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري البصري الحرامي • ولد في قرية المشان القريبة من البصرة عام ٤٤٦ هـ ـ وهو من بني حرام، وهي قبيلة عربية سكنت تلك المنطقة • أما كنية الحريري فهي نسبة الى صنعة الحرير أو بيعه • وبالرغم من حقارة المنطقة التي كان يقطنها ، الا أنه كان من أهل اليسار • ويقال أنه كان يملك ثمانية عشر ألف نخلة الى جوار مسكنه •

كان الحريري أحد أئمة عصره في البلاغة والبديع والنحو ، كثير الاطلاع على أشعار العرب ومعرفة سيرتهم • له تآليف عديدة منها : درة الغواص في أوهام الخواص ، كما يوجد له ديوان رسائل وشعر كثير • ووضع منظومة في علم النحو دعاها (ملحمة الاعراب) • ولكن مما لا شك فيه أن أشهر مؤلفاته وأكثرها

شيوعاً هي المقامات التي رفعت من ذكره ،وجعلته بمصاف كبار علماء اللغة والأدب العـــربي ٠

أما السبب الذي دعاه الى تأليف مقاماته فيذكره ابنـه أبو القاسـم عبد الله فيقول « كـان أبي جالساً في مسجد بنـي حرام ، فدخل شـيخ رث الثياب ، يحمـل مطري ، وعليه امارات السفر ٠ فسألـه جماعة ممن حضروا المسجد ممن الشيخ ؟ ـ فقال من سروج ، فاستخبروه عن كنيته فقال أبو زيد » ٠

فاستملح والده حديث الشيخ ، الذي كان فصيح اللسـان بليغ البيان ، فعمـل مقامة عزاها الى أبي زيـد السروجـي ،ودعاها بالمقامة الحرامية ٠ فلما تناقلهـا الناس ، وشاع ذكرها ومدحها ، بلغ خبرها الوزير شرف الدين أبا نصر القاشاني، وزير المسترشـد بالله (ت ـ ٥١٢ هـ) ،فدعاه اليـه وطلب منـه أن يضم اليهـا غيرها ، فأتمها الى خمسين مقامة ٠

وهنالك رواية أخرى تقول أن الحريري قد صنف مقاماته للوزير جلال الدين عميد الدولة علي بن صدقة (ت ـ ٥٢٢ هـ) وهو وزير المسترشد ٠ ذلك لأنه عثر على نسخة مخطوطة من مقامات الحريري، وهي بخط مصنفها ، وقد دون عليهم أنها مهداة الى الوزير المذكور ٠

ويذكر الحريري في صدر مقاماتـه السبب الذي دعاه لتصنيفها فيقول « لقد جرى ببعض أندية الأدب ، الذي ركـدت في هذا العصر ريحه ، وخبت مصابيحـه ، ذكر المقامات التي ابتدعها بديع الزمان ،وعلامة همذان رحمـه الله ، وعـزا الى أبي الفتح الاسكندري نشأتها والى عيسى بن هشام روايتهـا ، وكلاهمـا مجهـول لا يُعرف ، ونكرة لا تُتعرف ٠ فأشار من اشارته حُـكم ، وطاعته غُـنم ، الى أن أنشىء مقامات أتلو فيها تلو البديع ، وان لم يدرك الظـالع شأو الضليـع ٠ فلبيت دعوته تلبية المطيع ، وبذلت في مطاوعته جهد المستطيع ٠

وأنشأت ، على ما أعانيه من قريحة جامدة ، وفطنة خامدة ، ورويّة ناخبة ، وهموم ناصبة ، خمسين مقالة تحتوي على جد القول وهزله ، ورقيق اللفظ وجزله ، وغُرر البيان ودرره ، ومُلح الأدب ونوادره » ٠

ويقال أن الحريري لما عمل المقامات جعلها في أربعين مقامة ، وحملها معه من البصرة الى بغداد • ولما بدأ بنشرها لم يصدق جماعة من أدباء بغداد أنها من تصنيفه ، واتُهم بأنه استولى عليها من رجل مغربي مات بالبصرة • فاستدعاه الوزير الى الديوان وسأله عن عمله ومهنته فأجاب بأنه أديب ومنشىء • فاقترح عليه كتابة مقالة جديدة ، فأخذ دواة وورقة وجلس يفكر مدة من الزمن • ولما عجز بالنهاية عن القيام بذلك انصرف خجلا • ولكنه تمكن فيما بعد أن يضيف الى مقاماته عشر مقامات أخرى ، فأتم عددها الى الخمسين •

أراد الحريري أن يقلد بديع الزمان في مقاماته في مواضيع شتى • ويدور محور أكثرها على الاحتيال والكدية والسرقة ، وهذا يدل على انتشار الفقر وفقدان الأمن في عصره • وفي بعض مقاماته يجري حواراً بين صاحب دين وصاحب أخلاق ، كما في المقامة الصنعانية، أو يأخذ الحوار شكلا أدبياً فكاهياً كما في المقامة النحوية • ويذهب أحياناً مذهب أهل المجون كما في المقامة الكرجية •

ان أول مقامة وضعها الحريري هي كما ذكرنا المقامة الحرامية ، وكان ذلك عام ٤٩٥ هـ ، أما آخر مقاماته فهي البصرية وقد أنهاها عام (٥٠٤) هـ ، وفيها يتوب أبو زيد السروجي ويعتكف في المسجد •

مما لا ريب فيه أن مقامات الحريري تفوق مقامات بديع الزمان لأسباب عديدة ، فهي أغنى بالآيات القرآنية والأحاديث الشريفة والأمثال والحكم والأشعار. يضاف الى ذلك أن الحريري أكثر تعمقاً بأسرار اللغة العربية وعلومها ومعرفة حقيقتها ومجازها ، مع جمال وابداع في أسلوب الكتابة ، نثراً وشعراً ، بطرق لم يستطيع أن يجاريه فيها أحد من الكتّاب حتى الآن •